ISSN: 1112- 7872 مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ
E-ISSN: 2600-6162
مجلد: 18 عدد: 01 أوت 2022
العنوان: مشكلة الدين في فلسفة برغسون ص.ص 1043- 1059.

مشكلة الدين في فلسفة برغسون

أمعوش موسى
1- جامعة الجزائر2 - أبو القاسم سعد الله-
amaouche.moussa89@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/09/29؛ تاريخ القبول: 2021/03/10

The issue of Religion in bergson's philosophy

Amaouche Moussa

Abstract:

Religion is one of the Most important contemporary inttellectual affairs, wich has become the subject and concern of philosophers and intellectuals, which has led us to take the core of this idea of the French philosopher Henri Bergson, who made it main axis and the actual application of his philosophy, which appears in his presentation of the subject of the vital as a mean of redemption, opennes and emancipation and a mean of revealing the levels of the absolute and the divinity, so to reach it we return to our deep experience represented in the reconstitution and revitaliztion of religious experience and its effectiveness in the field of life taking into consideration that the religious values embodied in the experience of soufism are the values of the univers of humanity and are note static values, the proof that God is present in us and does not leave us because he is purely spiritual and is a source of change evolution and creation that appears in life.

Keywords: God; human; static religion; soufism; mobile religion.

الملخص:

تعد مسألة الدين من أهم المسائل الفكرية المعاصرة، التي أصبحت مثار الفلاسفة والمفكرين وشغلهم الشاغل، هذا ما جعلنا نلفي جوهر هذه المسألة عند الفيلسوف الفرنسي هنري برغسون، الذي جعلها المحور الأساسي والتطبيق الحقيقي لفلسفته، بدليل أن عرضه لمسألة الحيوي كطريق للخلاص والإنفتاح والتحرر، ووسيلة للكشف

عن مستويات المطلق، والألوهية، وبلوغه لا يتم إلا بالعودة إلى تجربتنا الباطنية العميقة، إنما ذلك هو إعادة بناء وإحياء للتجربة الدينية من جديد، وتأكيد فاعليتها في صعيد الحياة على اعتبار أن القيم الدينية التي تجسدها التجربة الصوفية هي القيم الكونية الإنسانية، وليست القيم الساكنة المغلقة، بدليل أن الإله حاضر في ذواتنا وحي لا يموت ولا ينقطع عنا، من حيث أنه ماهية روحانية خالصة، ومصدر التطور، والتغير، والخلق الذي يتجلى في الحياة.

الكلمات المفتاحية: الإله، الإنسان، الدين الساكن، الدين المتحرك، التصوف.

مقدمة:

يعد مؤلف برغسون (Henri bergson1941_1859) المتأخر والموسوم بمنبع الأخلاق والدين (les deux sources de la moral et de la religion) التطبيق الحقيقي لفلسفته، لأنه من خلال هذا المؤلف بين لنا أن الحياة الإنسانية لا يمكن أن نتصورها خارج رتابة هذين المصدرين اللذين يتمثلان في الأخلاق والدين، فإذا كان المصدر الأول هدفه هو تحقيق العدالة الإنسانية في الحياة، وبناء علاقات بين الإنسان والمجتمع وتحديد مختلف سلوكاتهما، فإن المصدر الثاني المتمثل في الدين هو تكملة للمصدر الأول، أي أنه وراء العدالة الإنسانية توجد عدالة مطلقة كونية، وهي العدالة الإلهية، هذه الأخيرة التي لا تنفصل عن عدالتنا وهي أساس استمرار الحياة، فلا يمكن العيش في الحياة وتحقيق أسمى الغايات دون حضور ذلك المصدر المطلق، الذي كرس برغسون جل حياته من أجل تعميقه فينا، كما أنه أراد من خلاله أن يبعث ويغرس فينا قيم مثالية مطلقة وكونية، تعمل على الإطاحة بكل القيم المادية الزائفة، المائجة،التي من شأنها تعرقل السلوك والحياة الإنسانية اللذان أصبحا دون تتمة روحانية، ومن هنا تنبع أهمية بحثنا المتمثلة في مايلي:

_ معرفة طبيعة هذه التتمة الروحية (القيم الدينية) من وجهة نظر برغسون، وتبيان الفرق الموجود بينها وبين التصورات السابقة عنها.

_ توضيح أثر الدين من حيث هو قيمة كونية في حياة الإنسان

والكشف عن علاقته بالتصوف، هذا ما جعلنا نتبنى عدة تساءلات مضمونها ما يلي:

ما طبيعة هذا المصدر الذي يحدثنا عنه برغسون؟ وما أثره في حياة الإنسان؟ أو ماذا يعني الدين كقيمة كونية بالنسبة للإنسان؟ ما هوالدين الحركي والدين الساكن عنده؟ وما هو سر العلاقة فيما بينهما وبين التصوف؟وللإجابة عن هذه الأسئلة والأخرى،ارتأينا إلى تقسيم بحثنا إلى مختلف العناصر منها:

_العنصر الأول هو مفهوم الدين، ومن خلاله يتم الكشف عن المعنى الحقيقي للدين من وجهة نظر برغسون.

_العنصر الثاني: أقسام الدين وهما: الدين الساكن والدين المتحرك.

_ العنصر الثالث: الدين وعلاقته بالتصوف.

1 _مفهوم الدين:

إن التصور البرغسوني للدين يختلف عن التصورات السابقة، وميزته تتجلى في أنه لا يمكن للدين أن يستمد معناه خارج إطار جانبين أساسيين: الجانب الأول متمثل في الطابع السكوني للدين،وهو الذي يجعل من الدين هو مجموعة من الطقوس والمعتقدات، الخرافات، والأساطير وهي كما سيبينها برغسون تعمل على إضفاء الطابع المغلق على الدين، الجانب الثاني يتمثل في الطابع الحركي للدين والذي يعبر عند برغسونعن التجربة الباطنية العميقة للإنسان، وعلاقتها بالمطلق، ويتجسد من خلال تجربة التصوف، والتصوف عند برغسون لا يمكن أن لا يكون تصوف مسيحي، لأنه هو الذي يجسد نموذج الدين الحقيقي(العظم، 2012، ص 161-162)

2 _ أقسام الدين:

2_1_ الدين الساكن:

بين برغسون في بداية حديثه عن هذا النوع من الديانة، بأنها تجربة الشعوب البدائية التي لم ترقى إلى مستوى الفكر، لأن الفكر البدائي ليس أكثر من فكر مزيج بالأساطير والخرافات، وهذا ما نجده في الكثير من أديانها ومعتقداتها السابقة، إنها أديان خرافية وهمية مليئة بالقيم المنحطة والمضللة التي تحطم العقل الإنساني وحياته وسلوكه، وعندما يصفها برغسون يقول: إذا نظرنا إلى ما كانت عليه الأديان في

السابق وإلى ما لا يزال بعضها حتى الآن، رأينا مشهدا يخجل العقل الإنساني ونسيجا من الضلالات وعبثا تقول التجربة هذا خطأ ، وعبثا يقول التفكير هذا مستحيل ، فإن الإنسانية موغلة في تعلقها بأديان الخطأ والمستحيل (برغسون، 1971، ص 113)

انطلاقا من هذا القول يتبينأن الأديان السابقة، من منطلق برغسون، مؤسسة على مجموعة من القيم والمبادئ التي تتنافى مع العقل الإنساني، لدرجة أن هذا الأخير أصبح خجولا منها وفي مواجهتها،لأنهاقائمة على الخطأ والمستحيل، وتقع تحت نطاق أوهام وخرافات الإنسان ذاته وخاضعة لمشيئته، بدليل أنه عندما تكون من نتاج البشر على حساب أهدافهم و منطلقاتهم تصبح أديان وهمية،فلا ترتقي إلى مستوى القيم الدينية الكونية التي تخدم حياة الإنسانية، وفضلا عن ذلك وليدة الضمير الجمعي، ذلك الضمير الأسطوري الذي يحركها ويؤدي دوره فيها، كما تؤدي الغريزة دورها في مجتمع الحشرات والحيوانات عامة، إنها أقرب إلى الأديان الإجتماعية التي تحدث عنها علماء الإجتماع السابقين من أمثال أوغست كونت ، ليفي برول ودوركايم ، من أنها أديان مخلة بالعقل ومنطقها منطق الضلالة، الزيف، الخرافة السمجة وبالتالي وظيفتها تكريس المبادئ والقيم الجائحة الزائفة والوهمية في حياة البشرية(حنفي، 2008، ص 318)

كما نجد كذلك مصدرها ليس فقط العقل فحسب، ولكنها وليدة ملكةالخيال والزيف، ذلك ما جعل منها أديان مغلقة على ذاتها، وليس لها أي وظيفة في حياة الإنسانية غير القهر والقمع والتجهيل،كما أنها تدين لهذه الوظيفة المغلقة والثابتة(بدوي، 1989، ص 338)والإنسان عندما يعتنقها يتخيل وجود أبطال وهميين وشخصيات وهمية يقوم بتمثيلها وتصورها، كما لو أنها أرواح وآلهة تمتلك قوى يضع فيها كل ثقته الكاملة، ويمارس على أساسها مختلف الطقوس كالسحر، والشعوذة، ويصبح بذلك يتهرب من الواقع الحي إن صح التعبير ويدخل في واقع غير واقعه الحقيقي من دون علم ومعرفة، ومن هنا فالطبيعة تساعد هذا الإنسان في القيام بهذه المهمة، وتدله على كل هذه الشبهات التي تؤمن بها تلك الجماعة وعلى أساسها يدخل في غنم،

وانحراف، وغرم، وعدم الرضا على نفسه(ابراهيم، 1968، ص 200)

يتبين من خلال هذا أن الأبحاث في هذا المجال في اعتقاد برغسون، لم يتم الفصل فيها من قبل من طرف الباحثين والدارسين السابقين، من علماء الإجتماع، علماء الدين والأنثربولوجية، ولو أنه قدم لنا أمثلة على ذلك كليفي برول في مؤلفاتهولا سيما الأخيرة منها،قد تناول هذه المسألة المتعلقة بأديان الشعوب البدائية، لكن في دراسته لم يتعرض لهذه المشكلة التي تمثلت فيما يلي: كيف اتفق لعقائد وطقوس، وهي على هذا الحظ من قلة المعقولية أن تلقى قبولا لدى كائنات عاقلة ؟ (برغسون، 1971، ص 114)

إن لفي برول في نظر برغسون، وهو على دراية بهذه الأبحاث، إستطاع أن يكشف لنا عن طبيعة تطور العقل أو عقلية الإنسان على مر القرون، لكنه أغفل الكثير من هذه التساؤلات الجديرة المتعلقة بمصير الإنسانية، لأنه لو كان كذلك فكيف يتسنى للإنسانية أن تؤسس حياتها ومختلف سلوكاتها وقيمها في ظل تلك العقائد المضللة، الخاطئة والساكنة؟ والسبب في ذلك كما يؤكد برغسون أن الفكر يعمل ويتغير بتغير العصر، ولكنه لا ينصب اليوم على نفس الأشياء التي كان ينصب عنها من قبل، وهذا ناتج عن أن حاجات الإنسانية بالأمس غير حاجتها اليوم، وهذا هو المبدأ الذي ينتهي إليه البحث اليوم من المفروض(برغسون، 1971، ص 115)

ولهذا فالفكر ينبغي أن يتحرر من ذلك، على الرغم من أنه يكتسب مجموعة من العادات والأعراف هي ليست تماما كعادات اليوم، يجب أن يتصرف إزائها كما لو أنه يحاول تجاوزها، وهذه هي الميزة التي كانت تتميز بها الشعوب المنحطة والبدائية، والشعوب البدائية منذ قرون طويلة مقيدة بهذه القيم الدينية الساكنة، وهذا هو الدين الذي لم يعمل قط على استشراف مستقبل الإنسان، لكنه مجرد دين خاضع لإلزمات نابعة من الجماعة، ومنطقه هو منطق بدائي مغلق، وغير منفتح، ولا يخرج عن سلطة الضمير الجمعي المغلق، التي ينتج عنها قوة الضغط، الخضوع، الطاعة، وفي الحقيقة هذا ما يتنافى أيضا مع

برغسون الذي يدعوا إلى القيم الدينية التي تنشد الإنفتاح، التحرر، الإبداع وصنع الركب(برغسون، 1971، ص 120).

فإذن على الإنسان أن يأخذ بالدين الحقيقي الذي يهديه إلى طريق الصواب، والابتعاد عن عقيدة الهوى والضلال، حتى يتحرر أكثر من أوهامه، وتتضح علاقته بالإله في صفائها ونقائها، لأن حياة الإنسان والإنسانية جميعا مرهونة بصحة عقائدها، لكن ما نجده اليوم يختلف تماما، كما بين برغسون، لأن حالة الإنسانية تجاه الدين كشفت بأن الإنسانية ذاتها أصبحت تستفيد فقط من كل ما يجيده العقل ويصنعه من أفكار خرافية قاتلة عقيمة، ذات منطق غير سليم وجامد(برغسون، 1971، ص 121)

إن برغسون من خلال هذا الطرح، لا يلغي دور الدين والأديان السابقة بصفة عامة، بقدر ما يبين لنا أن هذه الأديان التي هي من نسيج الهوى واللغط كما يصطلح عليها،لا تفي بحاجات ومتطلبات الإنسانية، بل تظهر سكونها وتعمل على تدميرها وانحطاطها، لأنها تنطوي على مبادئ وأعراف يصطدمبها العقل، فعندما كان هذا الدين هو ركيزة الشعوب والأمم الأولى بهذه الكيفية، كانت النتيجة أن أصبحت في وهم وانغلاق، وتحجر، وتحسر على ماضيها، يذكر برغسون وهو يصف هذا الدين وهذه المعتقدات المغلقة التي دخلت فيها الإنسانية وهو يقول: نحن لا نعرف إلا إنسانية واحدة ولقد بلغت من التطور حدا، لأن البدائيين الذين نراهم اليوم لا يقلون عنا قدما، والوثائق التي يعتمد عليها تاريخ الأديان أمور قريبة العهد، وهذه المعتقدات المختلفة التي نعرفها الآن هي إذن نتاج تكاثر طويل وقد يجوز أن نرى ما فيها من غرابة ومخالفة للعقل.

هذا وإن الإنسانية انطلاق من هذا منذ العصور السابقة كثيرا ما تمتلك نزوع وميل لهذه الأديان المخالفة للعقل، لكن يا ترى ما طبيعة هذا النزوع؟ أو على الأقل ما مصدر هذا الميل الذي يؤدي بالإنسان، إلى العيش في كنف هذه القيم والمعتقدات، والقيود الضالة؟

إن برغسون في تحليله لهذه المسألة المعقدة، يبين لنا أن ذلك النزوع هو غريزة كامنة في الإنسان وهي التي تحضّه دائما على السلوكات الآلية التي تمثل بالنسبة له سوى أضغاث(برغسون،

1971، ص 122)يعني ذلك أن هذا الميل الذي استحوذ الإنسانية، هو ميل غريزي، وكثيرا ما يشبه الميل الذي نعثر عليه في مجتمع الحشرات كما ذكرنا سالفا، الذي تلعب الغزيرة، الدور الفعال فيها،إذ هي مصدر هذه السلوكات والقيم الآلية البيولوجية الساكنة،وعندما كانت الغريزة هي التي تؤدي دورها في الإنسان أصبح لا يستطيع التخلص من كامل سلوكاته وعاداته الآلية الخرافية منذ أمد طويل، بل لا يستطيع الإنفلات من قبضتها وهذا لدليل واضح أن الدين هنا لم يكتسي معناه بل انحرف عن وظيفته التي هي من المفترض أن تكون في خدمة الإنسانية، وهذا ما جعل من دوركايم في نظر برغسون يوضح أن مثل هذا الدين هو دين الجماعة الذي يفرض سلطته على الفرد.

ويضيف برغسون كذلك أن الإنسان ينبغي له أن يتجاوز هذا النوع من القيم الدينية الخرافية الساكنة، وينفتح على القيم الكونية التي هي بمثابة الضامن الأساسي للإنسانية، والحصن الحصين لها لأنها هي السبب الحقيقي الذي أدى إلى تعثر الكثير من المجتمعات الراهنة اليوم، إذا أردنا تقديم قراءة وإسقاط لمقاربة برغسون من جديد وإحيائها في عالم اليوم، لأن الكثير من مجتمعاتنا اليوم لم تنخرط بعد في الكوني الديني، بل لا زالت في هذا السكون الذي غمر فؤادها، وهي باستطاعتها أن تنفتح وتستمر، وتعمل على بناء قيم جديدة لكن إذا استطاع العقل كذلك التحرر من الأوهام التي صقلت فيه وتشبع بها منذ زمان طويل.

يقول برغسون معبرا عن هذا الدين: إن الدين السكوني يربط الإنسان بالحياة، وبالتالي يربط الفرد بالمجتمع، بأن يروي له أقاصيص كالأقاصيص التي يهدهد بها الأطفال وهذه الأقاصيص ليست كغيرها من الأقاصيص (برغسون، 1971، ص 226) لكن إذا كان الدين الساكن في اعتقاد برغسون مصدر انحطاط الإنسان وانغلاقه، كيف يتسنى لنا تجاوز هذا النمط الديني المغلق وكيف نؤسس لين حركي مفتوح؟ أو ما هو الدين الحركي في نظره؟.

2_2_ الدين الحركي(المفتوح):

إن هدف برغسون من عرضه وتناوله لمسألة الدين الحركي المفتوح، ودعوته للانتقال إليه وكذا التشبّع بقيمه، هو محاولة الكشف عن أسرار تجربة روحانية عميقة يكون منطلقها الحدس، الذي هو معرفة وجدانية مباشرة وجهد نفسي شاق، وليس العقل أو الغريزة،وتجاوزكل القيم الدينية والمعتقدات الساكنة للوصول إلى عالم المطلق، وتحقيق الاتصال المستمر مع الله، كما أن هذه التجربة تصر على عدم التعلق أكثر بالحياة بل هي زهد وتسامي عنها، إنها طريق إلى الحرية، البطولة، العدالة الكونية والتآخي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا يمكن في نظر برغسون تحقيق ذلك إلا بالعودة إلى التجربة الصوفية واستحضارها في هذا المجال، لأن هذه الديانة الكونية والإنسانية هي ديانة يجسدها التصوف.

إن التصوّف هنا في نظر برغسون هو الطريق الوحيد الذي تستطيع أن تتحرر به الإنسانية من خرافاتها وأوهامها، لكن هذه التجربة لا يتم العثور عنها إلا عند كبار المتصوفين، المسيحيين، أو التصوف المسيحي، ورغم الاختلاف الموجود بينهما، كما يوضح برغسون إلا أنهم يجسدون نموذج الدين الحقيقي والكامل، ولو أن ذلك يتضح عند الكثير من المتصوفة السابقين من أمثال: باسكال، تريزا داقيلا، جان دلا كروا، وهناك اختلاف متميز بينهم في الكشف عن تجربتهم الحدسية، إلا أن مصدر هذه التجربة يعود إلى تلك الوثبة الحيوية التي توجد وراء الحياة وتدفع بها إلى الاستمرار والتواصل والخلق، والإبداع(ابراهيم، 1968، ص 201)

وبناءا على هذا يكون الدين المتحرك، هو التصوف أي بمثابة كشف للمصدر الذي تنبجس منه الوثبة الحيوية وهذا الكشف هو جهد شاق، لا يمكن التعبير عنه وإدراكه في غاية البساطة، إنه تطلع للحياة، ومثل هذا الجهد يبلغه قلة من الناس الغير عاديون، وهؤلاء كما سيصفهم برغسون لا يظهرون عند قدماء اليونان، ولا عند الهنود القدامى ولكن نجد أمثلتهم في التراث الصوفي المسيحي، أولئك الذي يمجدون الأخذ بطريق الوثبة الحيوية، أو كما يعرف طريق الحب والشغف الصوفي، ذلك الحب الذي يعد تحرر تطلع نحو الإله وحجز للنصيب في

ذاتيته(بوخنسكي، 1992، ص 155)لكن ما علاقة الدين المتحرك بالتصوف وما طبيعة التجربة الصوفية التي يتحدث عنها برغسون؟

3 _ الدين والتصوف:

يؤكد برغسون عند وصفه للتجربة الدينية المتحركة بأنها تجربة لا يمكن لنا تفسيرها دون العودة إلى التجربة الصوفية، والصوفية التي يؤكد عليها برغسون كذلك لا تكون غير الصوفية الكاملة التي تجسد وتمثل حقيقة الدين الذي اصطلح عليه بالدين المتحرك ولهذا يقول: أما الصوفية الكاملة فهي في الحق صوفية كبار المتصوفة المسيحيين، ولندع مسيحيتهم جانبا، ولننظر فيهم إلى الصورة دون المادة، مما لاشك إن معظمهم قد مر بأحوال شبيهة بالمراحل التي انتهت عندها الصوفية القديمة، ولكنهم مروا بها مرورا وحين انطووا على أنفسهم يتحفزون لجهد جديد كل الجدة، إنما حطموا سدا، أن تيارا واسعا من الحياة قد اجتاحهم، فانطلقت من حيويتهم قوة خارقة في التفكير والعمل (برغسون، 1971، ص 243)

إن نموذج الدين الحركي عند برغسون بهذا المعنى لا يفسر من دون الأخذ بتجربة هؤلاء المتصوّفين وخير نموذج للتصوف، هو تصوف المسيحيين، هؤلاء إنما يجسدون حقيقة هذه القيم الدينية المطلقة، ويحملون في ذواتهم قوة تمتلك نصيب من القوة المتعالية، وبفضلها اكتسبوا ذلك الحب الكلي،والذي عن طريقه يستطيعون توجيه الإنسانية وبناء قيمها، لأن قيمهم هي بمثابة وسائط بين الأفراد والإله.

وعلى هذا الأساس فالمتصوف المسيحي ينطلق في تجربته من الحب أو ما يدعى بالحب الصوفي الذي يتملّكه، وهذا الحب لا يتجلى في العلاقة التي يقيمها الإنسان بالإله وحده، بقدر ما يعني إقامة علاقة حب بالله لجميع الناس، ومن هنا يمتلك موقعا بالنسبة إلى الإله وجميع الناس، إنه يمتلك تجربة روحانية عميقة نابعة من الوجدان وموهوبة من طرف الوثبة(الإله) كما تتجلى أكثر، في هذا الحب والاتصال الأبدي وخدمة الإنسانية، بغض النظر كما يؤكد برغسون عن أولئك الذين ينقصون من قيمة التصوف،هؤلاء الذين يصفون المتصوفة بأنهم مرضى، ومرضهم هو مرض عقلي جنوني، وإن برغسون نفسه يبطل هذا الادعاء على أساس أنه،يمكن التسليم بوجود مرض عقلي

وشذوذ في أوساط المتصوفة، لكن ألا تتوفر بين هؤلاء أسمى نماذج من النشاط الإنساني؟ بدليل أن العقول التي كانوا يمتلكونها إن هي إلا قواعد وركائز بالنسبة للإنسانية وتجارب عظمى تتصدي لكافة الانحرافات الناجمة فيها(ابراهيم، 1968، ص 203)

وفي نظر برغسون هؤلاء إنما اكتسبوا ما يعرف بالسلامة العقلية التي مكنتهم من أداء واجبهم تجاه الله والإنسانية، أو كما يقول: هذه السلامة العقلية تنجلي في الإقبال على العمل، وفي ملكة التلاؤم مع الظروف، وتجديد هذا التلاؤم بتجديد الظروف، وفي المتانة مع المرونة، والنظر البعيد الذي يميز بين الممكن وغير الممكن، وفي البساطة الفكرية التي تحل العقد، أي أن هذه السلامة العقلية هي الذوق السليم المتفوق أفليس هذا بعينه هو ما تجده لدى الصوفيين الذين نتحدث عنهم؟ ألا إنه هو القوة العقلية بعينها (برغسون، 1971، ص 244) ويتضح من خلال ذلك أن للمتصوّفة قدرة عقلية تفوق الناس العاديين وهذه القدرة العقلية هي ذلك الذوق الذي يحصلون عليه من عالم الوثبة الحيوية(الإله)، ولا يبلغه أي كان من الناس بل يأتي لقلة من الناس أولئك الذين هم في أشد حذق ويقظة واستعداد نفسي ذاتي مكتمل.

ولهذا فهؤلاء المتصوفة يمتلكون نفوس مليئة بالفيض الرباني، تحمل قيم دينية أخلاقية مثالية سامية وعشق إلهي خالص، ويصفها برغسون تلك النفس التواقة في قوله: إن الآلة المصنوعة من فولاذ شديد المقاومة، والمهيأة للقيام بجهد هائل، لتشعر بمثل هذا الحال، إذا هي وعت ذاتها، أثناء التركيب(...)، إن النفس الصوفية تريد أن تكون هذه الآلة. فتزيل من جوهرها كل ما ليس نقيا نقاء كافيا وكل ما ليس كافي المقاومة، والمرونة أيضا، حتى تكون أهلا لأن يستخدمها الله (برغسون، 1971، ص 248)

وبناء على هذا الطرح يكون الدين الكامل والمنفتح، لا يتجسد من دون وجود هذه النفس المليئة بالتقوى والاستعداد والزهد الدائم بغية تحقيق التواصل مع الله، تلك النفس التي لا نعثر عليها إلا في تلك الشخصيات المسيحية العبقرية، لأنها هي التي تعمل على غرس القيم العليا في البشر من قيم الإنفتاح والإجلال، لأنه تمكن للإنسانية من

كسب قيمها والشعور بحياتها الأخلاقية والدينية، وعلى ذلك فالصوفي هو خير مثال يجسد لنا هذا النوع من الديانة عند برغسون، كما نجد أيضا شخصية الصوفي مختلفة عن شخصية الفئات الأخرى ومنفردة لوحدها، لأنها شخصية زهيدة في الحياة وتتقبل كل ما من شأنه ينشد العلو والتسامي بالحياة ، كذلك هي ذات جهد مباشر مع الإله الخالق، كما أن كل هذا الجهد هو من نبع الخالق إن صح التعبير، والصوفي هنا لا يدرك كل هذا العمل الجبار إلا إذا كانت نفسه محتواة في نفس الإله الخالق والمبدع، وعن طريق ذلك تصبح أناه مندمجة في أنا كلية تتقاسم معها تجربة الحب الكونية(وهبة، 1987، ص 143)تلك هي تجربة التصوف كما بينها برغسون رغم أنها نوع من التعالي، لكنها تشيد بالعلاقة مع الواقع، كما أنها تشكل جزء من الذات الباطنية العميقة، أي على وجه التحديد منطقة اللاشعور، لأن اللاشعور يسمو بالنفس إلى أعلى مراتب الروحانية أين يتحقق الاتحاد بينها وبين الله وهكذا يقيم برغسون العلاقة بين الحقل الصوفي والحقل السيكولوجي فكلاهما مكملين لبعضهما البعض.

ويتضح من خلال ما سبق أن تجربة الحياة، تقتضي تجربة التصوف والتي هيتجربة إلهية كونية مستهدفة(وهبة، 1987، ص 144)ولذلك يجب على المتصوف في نظر برغسون أن يؤدي دوره كأن يوجه الإنسانية إلى الطريق الصحيح، يفكر في بنائها كلما شعر أنها هي في سبيل الانحراف ويفكر في مستقبل أجيالها، وبذلك فمهمته مهمة شاقة تتطلب جهودا جبارة ويقول برغسون معبرا على ذلك: فما يكاد الصوفي يهبط من السماء إلى الأرض حتى يشعر بالحاجة إلى أن يمضي إلى الناس يعلمهم يجب أن يبلغهم أن العالم الذي ندركه بالأعين، وإن كان حقيقيا، فإن ثمة عالما آخر غيره. وليس هذا العالم بالمحتمل أو الممكن فحسب، كما قد يؤدي إلى ذلك البرهان العقلي، بل إنه يقيني يقين التجربة (برغسون، 1971، ص 249)

وهذا يدل على أن الصوفي يحمل في جوفه حقيقة تبلغ درجة أكثرمن الحقائق الأخرى، تستطيع أن توجه حياة الناس ومن ثم كان لزاما عليه أن يطلعهم عليها، ولابد أن يخبرهم بالحقيقة المطلقة التي توجد خلف هذا العالم المحتمل، والتي ينبغي علينا بلوغها دوما والأخذ بمبادئها،

لأن المتصوف بهذه المهام الشاقة يثبت أنه يمتلك حبا حقيقيا للإنسانية،ويؤكد برغسون أن الحب الذي امتلكه وسيطر عليه ليس هو حب الإنسان لله فحسب، بل هو حب الله لجميع البشر والإنسانية عامة، فمن خلال الله وبالله، يحب الإنسانية كلها حبا إلهيا مطلقا(برغسون، 1971، ص 250)

يكون عن طريق هذه التجربة نستطيع الكشف عن وجود الله، لأن الإله البرغسوني هو موجود فينا ومستقر داخل تجربتنا الداخلية بل ومحايث بالنسبة لها، أي أنه كلما اتجهنا إلى أعماقنا كلما وجدنا الله حاضرا فينا، فلا مجال للعقل عند برغسون في أن يثبت لنا وجوده، فكل الأدلة التي يمليها العقل تظل ناقصة هي الأخرى، ومن ثم فهي غير كافية لتأكيد على حضور ومشروعية هذا الخالق، ويتضح من خلال هذا أن تلك البراهين العقلية لا تفي وتحيط بجوهره، كالدليل الأرسطي مثلا المحرك الذي لا يتحرك، أو البرهان الغائي، الذي يقر بوجود خطة مستهدفة من قبل(وهبة، 1987، ص 137_138)

ولهذا يقول محمد علي أبو ريان في شأن التجربة الصوفية عند برغسون: التجربة الصوفية هي الطريق الأوحد لحل مشكلة الله حلا تجريبيا(...)، وهي مشاهدة عيانية، ورصد روحاني، ومثول في مواجهة الحضرة الإلهية (ريان، 1996، ص 423)وعليه يكون الإله البرغسوني مختلف عن إله الفلاسفة، الذي هو من نسيج عقلي، بخلاف ذلك نجد برغسون يثبت لنا الإله بالتجربة الصوفية التي هي التوق، والحب، والذوق، والسمو نحو الأعلى، أي أنه ذلك الإله الذي بمثابة ديمومة الحياة(وهبة، 1987، ص 139)وعندما يتحقق هذا المفهوم الدقيق للدين يصبح الدين دينا أبعد من أن يكون سكوني بالنسبة الإنسانية.

انطلاقا من هذا الموقف يكون الدين من منظور برغسون هو هذه النبرة الصوفية الحارة التي تقذف في النفس الإنسانية، لأنه بفضل التصوف يستطيع الإنسان أن ينال شيئا من الحقيقة الدينية(برغسون، 1971، ص 254)وهذا الدين الذي يريد أن برغسون أن يكشف عنه، لا يخرج عن أن يكون هو هذه التجربة الصوفية وعن طريقها تستطيع الإنسانية أن تجدد نفسها من حين لآخر، بل وتعمل على تكريس مجمل

قيمها الكونية وكذا محاكاة القيم الإلهية، ومن ثم تكون ضمن منظومة القيم الإنسانية العليا، وبناءا على هذا يكون الدين ذات صلة وثيقة بهذه التجربة الصوفية التي عمل على تبسيطه لكافة الناس كذلك التبسيط الذي نحصل عليه من العلم(برغسون، 1971، ص 255)وهذا هو الطريق الذي يتضح على أساسه الدين الحركي المفتوح، إنه الطريق الذي يكشف للإنسانية عن كل مبادئها القائمة على روح المحبة والطمأنينة، والصدق الروحاني ولا يخفى علينا أن التصوف المسيحي جسد كل هذه القيم النبيلة التي لم توجد من قبل في الحضارات القديمة السابقة.

يعبر جيل دولوز(gilles Deleuze)عن معنى التصوف عند برغسون بأنه: هو الذي يلعب بكل(عملية) الخلق، الذي يخترع تعبيرا لها أكثر ملائمة بقدر ما يكون أكثر ديناميية إن الروح الصوفية، الخادمة لإله منفتح ومتناه (تلك هي سمات الاندفاع الحيوي) تحرك نشاط كل الكون وتعيد إنتاج انفتاح كل شيء فيه ليرى أو ليتم تأمله(دلوز، 1997، ص 132)

وبهذا المعنى فالصوفي عندما يكون ذات اتصال عميق بالوثبة الحيوية (الإله)، ويكون قد عمل على تلبية ندائها والاستجابة لها، يستطيع أن يكون مشاركا في عملية الخلق، الإبداع، وكذا جر الإنسانية إلى حقل الروحانية الحقيقة وفي هذا الحقل تشعر بكل قيمها العليا، ويكون التصوف هنا هو بمثابة تجربة تعمل على الخلق ،الانفتاح، التسامي وتجاوز كل القيم اللاأخلاقية، لأنها تجربة فوق العقل وتسمو عنه، وتسعى لتحقيق الاتحاد مع الله وبلوغ كماله وبذلك تكون هذه هي المرحلة النهائية للمتصوف والتي لا يمكن وصفها مباشرة، بل حتى كبار المتصوفين عاجزين عن وصفها لأنها فيض وهذا الفيض يتضح كلما كان الاتحاد بالإله كاملا، ولهذا فالنفس التي يحتوي عليها الصوفي هي نفس طموحة في الظهور بذاتها، وملحة لذلك الإشراق والنور الإلهي الكامل، وبفضل ذلك تحقق بينها وبين الإله ذلك الاتحاد الكلي والنهائي(مصطفى، 1998، ص 122)

يتضح لنا كذلك مما سبق أن العاطفة التي يحب الصوفي بها البشرية، لا حدود لها وليس هذا الحب امتداد لغريزة، بل يتعدى حدود الغريزة،

ولا ينجم عن تفكير بشري، إنه يطابق حب الله هذا الحب الذي أوجد كل شيء والذي هو مفتاح سر الخليقة(مصطفى، 1998، ص 126)وهذا ما يعرف بالحب والعشق الصوفي الروحاني عند برغسون، وهو الحب الذي يتحقق عندما تمتلك النفس عاطفة جياشة للتطلع إلى المرتبة الإلهية وتحقيق ذلك التواصل الكلي معها وفي الحقيقة هذا هو المنبع الحقيقي للإنسانية ومستقبلها، وكل قيمها الأخلاقية والدينية،لأنه كما يقول: التصوف لا جدال فيه هو مصدر التحولات الأخلاقية الكبرى، الإنسانية بدون شك ليست بعيدة عن ذلك (Henri, 1990, p. 310)

لكن إذا كانت هناك دين ومغلق، ودين حركي مفتوح أيضا نجد أن ذلك ما يؤدي إلى بروز نوعين من المجتمع في نظر برغسون وهما المجتمع المغلق والمجتمع المفتوح.

إن المجتمع المغلق هو مجتمع إلزامي مشبع بالقيم الأخلاقية والدينية المتعصبة المغلقة، بالإضافة إلى ذلك يخضع لمجموعة من الضوابط والأحكام والمعتقدات نابعة من ذاته وينطوي عليها ولا يستطيع تجاوزها يعبر عنه برغسون بأنه : هو المجتمع الذي يتماسك أفراده فيما بينهم، غير حافلين بسائر الناس، مستعدين دوما لهجوم أو دفاع، مقتصرين أخيرا على موقف القتال وذلك هو المجتمع الإنساني الأول ولهذا المجتمع خلق الإنسان، كما خلقت النملة لقرية النمل (برغسون، 1971، ص 287)أي أنه مجتمع يفتقد لقيم عليا ينطوي على ذاته، وديانته ديانة مغلقة وساكنة، بل هي أيضا وليدة ذلك الضغط والإلزام الذي ينطوي عليه، إن هذا الدين الذي هو سكوني يمثل أساس المجتمع المغلق(برغسون، 1971، ص 288)

المجتمع الثاني هو المجتمع المفتوح بحيث نجده يتميز عن المجتمع الأول، بحيث يدعو إل بناء الإنسانية بالإضافة إلى ذلك يمثل الإنسانية بكاملها، قوامه قوة نفوس الصفوة(برغسون، 1971، صفحة 288)وهذا النوع من المجتمع هو المجتمع الذي يؤمن بالدين الحركي، والأخلاق الحركية المفتوحة هو مجتمع روحاني كامل لأنه يدعو إلى تمجيد القيم الدينية العليا، ويمتلك روح الإرادة والعزيمة القوية لصنع

الركب والحضارة، وهذا المجتمع يتجاوز المجتمع الأول وبرغسون كثيرا ما يصر على الأخذ بهذا النموذج والإقتداء به.

لكن إذا كان كذلك كيف نستطيع بلوغ هذه القيم المطلقة وقد يتعذر ذلك، خاصة وأن برغسون أراد أن يقيم علاقة بين الدين والفلسفة بغية التأكيد على المبدأ الإلهي وهذا هو الطريق الذي يجب أن يسلكه المجتمع، لأن برغسون عندما يقدم لنا مثل هذه البدائل لا يصف نفسه كرجل دين أو لا هوتي وإنما يحافظ على البعد العقلاني والفلسفي في استقراء وتحليل مثل هذه القضايا المعقدة.

إن برغسون بناء على ما سبق نجده في نهاية عرضه للمسألة الدينية، دعا إلى ضرورة بناء المجتمع بناء دينيا متينا، كما يجب مراعاة كل جوانبه؛ خاصة الدينية، كما كان يدعونا إلى ضرورة التحلي باليقظة أثناء اللجوء نحو الكماليات والملذات وتجاوز كل أشكال الفساد التي تحيط بالمجتمع من أجل تفادي خطورتها، وأن هذا لا يتم إلا بالعودة إلى ما يعرف بطريق البساطة الذي هو الطريق الأنجع للتخلص من كل الصعوبات والتعقيدات والحاجات التي تعترض ذلك المجتمع، وعندما نقول طريق البساطة نعني بذلك العودة إلى الحياة البسيطة حياة الصفوة من العباقرة والممتازين الذين هيأتهم الوثبة الحيوية بصفة عامة(ابراهيم، 1968، ص 208)

ولهذا برغسون، لا ينكر دور التحضر وما صاحبه من التطورات الآلية والعلمية التكنولوجية في صنع ركب المجتمعات الحديثة، لكن ما يجب التحلي هو ضرورة وضع التجربة الأخلاقية وخاصة الدينية (التجربة الروحية الصوفية) بجانب التجربة العلمية الآلية، من أجل التصدي لكثير من التجاوزات التي ربما تعمل على كبح طموحات الإنسان في بناء منظومة قيمه، معتقداته، وكذا إنفتاحه على المستقبل.

الخاتمة:

إن ما ينتج في الأخير بالخصوص مشكلة الدين في فلسفة برغسون هو ما يلي:

_ أن نظريته في الدين لا تنفصل عن نظريته في الأخلاق، لأن الحياة تتقوم بهذين المصدرين الأساسيين ومن ثم إذا كان قد أثبت عن طريق نظريته الأخلاقية عن عدالة إنسانية فإنه كذلك عن طريق نظريته في

الدين استطاع يثبت لنا عن عدالة إلهية تساير العدالة الأولى، وذلك ما تأكد من أنه الإله حاضر ومحلول في طبيعتنا الداخلية، حيث هو حقيقتها وجوهرها وماهيتها.

_ نظرية برغسون في الدين هي نظرية تأكد فاعلية القيم المطلقة في الحياة من خلال تحقيق العلاقة المباشرة مع الإله والإتحاد معه عن طريق تجربة مطلقة تدعى بالتصوف. وهنا تكمن العلاقة المباشر بين الدين والتصوف التي ينظر إليها برغسون في تكاملها.

_ أيضا اقتراح برغسون للطريق الصوفي ما هو إلى خلاص للإنسان والإنسانية عموما، لأنه طريق يتيح للإنسان تلك المشاركة الفردية مع الإله في عالم المطلق وتلك هي مرتبة الخلاص والتحرر والإنفتاح.

_ إن هدف برغسون في الإنتقال من النظرية الأخلاقية إلى النظرية الدينية هو إعادة خلق وبناء القيم الإنسانية من وجهة نظر أخرى تساهم في مواجهة وإطاحة كل القيم المادية المنغصة في الحياة لأن في رأيه ذلك ما يجعل الإنسانية أمام مستقبل ومصير محدد بقيم مطلقة يحافظ عليه.

المراجع:

1) إبراهيم زكريا (1968)، **برغسون**، مصر: دار المعارف.

2) أبو ريان محمد علي(1996)، **تاريخ الفكر الفلسفي** ، مصر: دار المعرفة الجامعية، ، ج4.

3) بدوي عبد الرحمان(1989) ،**موسوعة الفلسفة**، ج1، ط1، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع.

4) برغسون هنري(1971) ، **منبعا الأخلاق والدين**، ترجمة: سامي الدروبي، عبد الله الدائم، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر.

5) بوخنسكي,إ.م(1992)، **الفلسفة المعاصرة في أوربا**، ترجمة: عزت قرني، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني الأعلى للفنون والآداب.

6) حنفي حسن(2008) ، **برغسون فيلسوف الحياة**، المكتب المصري للمطبوعات، القاهرة،.

7) دلوز جيل(1997)، **البرغسونية**، تعريب: أسامة الحاج، ط1 ، بيروت، لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

8) صادق العظم جلال (2012)، **دراسات في الفلسفة الغربية الحديثة**، ط1، بيروت، لبنان: جداول للنشر والتوزيع.

9) غالب مصطفى(1998)، **برجسون**، ط1، بيروت، لبنان: منشورات دار ومكتبة الهلال.

10) وهبة مراد (1978)، **المذهب في فلسفة برغسون**، ط2، القاهرة: مكتبة أنجلو مصرية، دار ودهان للطباعة والنشر.

11) Bergson Henri (1990)**, les deux sources de la morale et de la religion**, 4em édition, quadrige, paris, puf.

للإحالة على هذا المقال:

- موسى أمعوش، (2022)، « **المصادرة مشكلة الدين في فلسفة برغسون** » **. المواقف، المجلد: 18**، العدد: 01، أوت 2022، ص. ص 1043- 1059.